

اكتساب اللغة من المنظور السلوكي إلى المنظور المعرفي
Language acquisition from behavioral to cognitive
perspective.

أ.د. أسماء بن منصور جامعة باتنة 1

تاريخ النشر : 2020/12/29

رقم الهاتف: 0781456302

المخلص : يتناول هذا المقال مسألة معرفية خاض فيها العديد من العلماء من ميادين شتى، إذ عالجه اللغويون ضمن مباحث اللسانيات التطبيقية كما عالجه علماء النفس. و ذلك راجع إلى طبيعة المسألة التي تتداخل فيها العديد من الحقول المعرفية. و قد رمت في هذه المعالجة الوقوف على أهم النظريات النفسية التي أسهبت في دراسة عملية اكتساب اللغة و أخص بالتحديد النظرية السلوكية التي يتزعمها سكينير و النظرية المعرفية التي يتزعمها جان بياجيه.

الكلمات المفتاحية:

- اكتساب، اللغة، الإشرط الاستثابي، النظرية السلوكية، النظرية المعرفية. الإدراك.

Abstract : This article deals with a cognitive issue in which many scientists from various fields had discussed it. This is due to the nature of the issue in which many cognitive fields overlap. The aim of this treatment is to identify the most important psychological theories that have contributed to the study of language acquisition, particularly the behavioral theory led by Skinner and the cognitive theory led by Jean Piaget.

Keywords: cognitive issue, psychological theories, language acquisition, Jean Piaget, Skinner.

من أعقد العمليات الذهنية التي يقوم بها في مراحل حياته الأولى عملية اكتساب اللغة، ويعني الاكتساب في أبسط مفاهيمه ترسيخ اللغة في الذهن من المحيط الاجتماعي مع القدرة على إنتاج جمل و تراكيب قصد التواصل و التبليغ. فالطفل يقوم

بعمليتي الاستقبال و التخزين لكل صوت لغوي يتلقاه من المجتمع و ترتبط بعمليتي الاستقبال و التخزين عميلة الاستيعاب فهي ضرورية جدا لترسيخ المكتسبات و الإنتاج على السواء. و قد تناولت عدة حقول معرفية عملية الاكتساب فدرسها الفلاسفة واللغويون و علماء النفس و علماء الدماغ و الأعصاب، و في هذا المقال ابتغينا الوقوف على أهم النظريات و التأويلات النفسية لعملية الاكتساب ، و هذا ما يفرض علينا طرح جملة من التساؤلات: ما أهم النظريات النفسية التي خاضت في هذه القضية؟ ما الحقائق العلمية التي أثبتتها و ما الانتقادات التي وُجّهت إليها؟ هل نجحت هذه النظريات في تقديم تفسير علمي منطقي لعملية ترسيخ اللغة في الذهن أم ظلت محض اجتهادات؟

أولا - النظرية السلوكية (سكينر)

يعرف هذا الاتجاه باتجاه التجريبيين Empiricists الذين يذهبون إلى أن المعرفة الإنسانية لا تؤتى إلا بالحواس. ففي >> عام 1924 قدم " واطسون" (J- Watson) نظريته السلوكية التي جعلت علم النفس التجريبي دراسة للسلوك الملاحظ ، تقف الملاحظة في مواجهة الآراء العقلية من ناحية و الأساليب الاستبطانية من ناحية ثانية، و النظريات المعرفية من ناحية ثالثة. وقد نشر فصلا بعنوان " الكلام و التفكير" ينفي فيه وجود الجانب العقلي، و يعتبر التفكير بمثابة كلام الفرد إلى نفسه . <<¹

و قد تأثر سكينر (Skinner) بآراء واطسون ، و تعد نظريته التي جاء بها سنة 1957 واحدة من أقدم التفسيرات لعملية اكتساب اللغة، وكما هو معروف فسكينر واحد من رواد السلوكية إذ يرى أن ارتقاء اللغة عند الطفل تعتمد على التأثير البيئي أو تأثير المحيط.

يزعم سكينر أن عملية اكتساب اللغة تقوم على أساس التعزيز السلوكي القائم على مبدأ المثير و الاستجابة ، >> وهو يرى أن اللغة عبارة عن مهارة ينمو وجودها لدى الفرد عن طريق المحاولة و الخطأ، ويتم تدعيمها عن طريق المكافأة ، و تنطفئ إذ لم تقدم المكافأة . <<²

فمثلا عندما ينطق الطفل كلمة " حليب" فيجد الاستجابة عند والدته بتقديم الحليب له، فيدرك الطفل عندئذ هذه الاستجابة على أنها مكافأة ، وهذا ما يدفعه إلى استخدام هذه اللفظة من جديد و يكررها مرارا وهكذا يكون الأمر مع بقية الألفاظ فيؤدي ذلك إلى اكتساب اللغة مع مرور الوقت.

إن تفسير سكينر لاكتساب اللغة يجعله يماثل أي اكتساب لشيء آخر كركوب الدراجة مثلا، فمرده عملية التعلم و الطفل يتعلم القواعد بنفس الكيفية التي يتعلم بها ركوب الدراجة. و القواعد الصحيحة تأتي نتيجة استجابة للمحفزات، وتعزيز هذه المحفزات يؤدي إلى تثبيت القواعد السليمة عن طريق استعمالها مستقبلا، في حين أن القواعد الخاطئة يتم تعزيزها بشكل سلبي ، و لذا لا يتم استخدامها مجددا.³

فاللغة إذن حسب النظريات السلوكية لا تعدو كونها سلوكا أو استجابات يصدرها الفرد كرد على حافز أو منبه ما. لا فرق عندهم بين الاستجابة اللفظية أو الاستجابة الفعلية كالركض و المشي ، وتعلم ركوب الدراجة مثلا.

كما بيّنا سابقا تعود جذور النظرية السلوكية في اكتساب اللغة الأولى إلى ج. ب. واطسون J. B Watson وبالتحديد إلى فرضيات العادة لديه التي تقول أن الترابط The association بين استجابة معينة لحافز معين يُكوّن لنا ما يسمى بالعادة ، لذلك فالعادة تتشكل عندما تصبح استجابة معينة مرتبطة بانتظام مع حافز معين. ثم جاء سكينر سنة 1957 مقتفيا أثر واطسون باحثا عن كيفية تشكل هذه العادات، ثم بعد ذلك طور آراءه عن اكتساب اللغة الأولى في كتابه " السلوك الفعلي " (Everbal Behavior سنة 1957).⁴

لم يحاول سكينر تفسير تعلم اللغة مقتفيا أثر واطسون فحسب ، بل اتّبع بصفة عامة فرضيات تشكل العادات عند غيره من السلوكيين أمثال إيفان بافلوف Ivan Pavlov الذي أسس نظرية الإشرط الكلاسيكي ، فالسلوكيون الأواخر طوروا نظرياتهم من دراسة بافلوف لسلوك الحيوان من خلال تجارب مخبرية على الكلاب و تجارب ثورندايك Thorndike على القطط ضمن صناديق الألغاز و يتمثل إهداء هؤلاء السلوكيين أن جميع الحيوانات ، بمن فيهم البشر ، ولدوا مزودين بمجموعة من الاستجابات الغريزية للمحفزات الخارجية ، لذلك فإن نظريات تشكل العادة هي نظريات التعلم بشكل عام، و حتى نهاية 1960 كانت تشتق الآراء حول تعلم اللغة بشكل عام من هذه النظريات و لهذا يمكن تطبيقها على الإنسان.⁵

و لكن آراء سكينر كانت أقل تطرفا من آراء واطسون، فسكينر يؤمن أننا نملك شيئا كالعقل ، لكنه ببساطة، من الأهمية و الجدارة أو من المثمر (Productive) دراسة السلوك العيني الذي يمكن ملاحظته بالحواس أكثر من العمليات العقلية الداخلية.

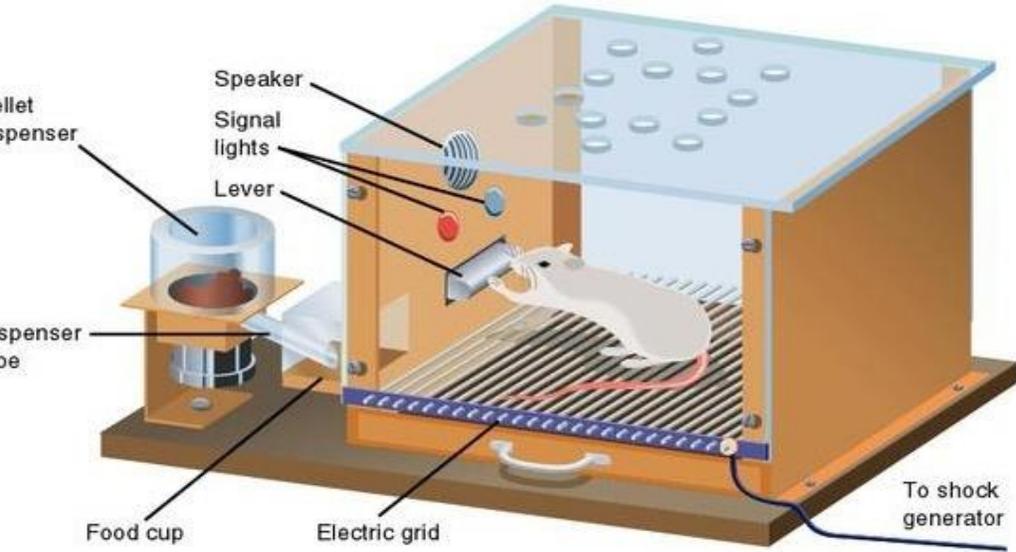
لقد عمد سكينر من خلال تجاربه على الفئران لتبسيط السلوك البشري المعقد، فهو يؤمن أن أفضل طريقة لفهم السلوك هي النظر إلى الأسباب التي تجعل الناس ينحون إلى القيام بسلوك معين دون سواه، وما هي نتائج هذا السلوك ويسمى الطريقة أو المنهج (Approach) الذي من خلاله يفسر ذلك بـ "الإشرط الاستثابي" Operant Conditioning و لنتتبع مصطلحات سكينر لفهمها جيدا :

1- الإشرط الاستثابي Operant Conditioning :

يعد سكينر الأب الروحي لنظرية الإشرط الاستثابي، وعمله يتأسس على قانون التأثير Law Of Effect لثورندايك الذي درس تعليم الحيوانات عن طريق صناديق الألغاز Puzzle boxes. لكن سكينر قدّم تعبيراً جديداً لقانون التأثير وهو التعزيز Reinforcement، وهكذا فإن السلوك الذي تم تعزيزه يميل المرء إلى تكراره و السلوك الذي لم يتم تعزيزه يميل إلى إيقافه. وقد قام عام 1948 بدراسة هذا الأمر عن طريق إجراء تجارب مستخدماً الحيوانات التي وضعها في صندوق يسمى بصندوق سكينر Skinner Box، وهو يشبه صندوق الألغاز لصاحبه ثورن دايك Thorndike's puzzle box.

ومن هنا صاغ مصطلح الإشرط الاستثابي ويعني به تغيير السلوك بواسطة استخدام التعزيز المعطى بعد الاستجابة المرغوبة.⁶ وقد قسم سكينر التعزيز إلى نوعين:

1 – التعزيز الإيجابي Positive Reinforcement: لقد أظهر سكينر كيف يعمل التعزيز الإيجابي وذلك بوضع فأر جائع في صندوق سكينر كما يوضح الشكل التالي:



يحتوي الصندوق على مقبض Lever وكلما تحرك الفأر فإنه ينقر على المقبض، وهنا يندفع طبق الطعام مباشرة (a food pellet) للسقوط بجانب المقبض، وكلما كرر الفأر الضغط على المقبض فإن الطبق يزوده بالطعام. وهكذا تعلم الفأر بسرعة الذهاب مباشرة إلى المقبض بعد مدة قليلة من المكوث في الصندوق فكانت النتيجة هي تلقي الفأر للطعام كلما ضغط على المقبض مما يدفعه لتكرار الضغط مرة بعد مرة.⁷

إن التعزيز يدعم السلوك و ذلك من خلال المكافأة (reward) التي يتلقاها الإنسان و الحيوان مما يدفعه لتكراره كي ينال المكافأة مرة أخرى. فمثلا إذا قام الأستاذ بتحفيز تلاميذه للقيام بواجباتهم عن طريق مكافآت أو كلام يرفع من معنوياتهم أو مجاملات فلا شك أن هذا يدفعهم لتكرار سلوكهم في المستقبل ، بل قد يدعوهم إلى التفاني في عملهم أيضا و هذا يشمل تربية الأبناء أيضا، بل لعله ينطبق على جوانب شتى من حياة الإنسان، و حتي في قضية الدين، فالله أعدّ مكافأة للمجتهد الذي يمثل لتعاليمه و أعدّ النار كعقاب لمن يحيد عنها و يفسد في الأرض.

2- التعزيز السلبي Negative Reinforcement:

انتقاد سلوك معين يمكن أن يقوي التعزيز المضاد وهذا يعرف بالتعزيز السلبي ، لأنه يقوم بإزالة مجموعة من المحفزات التي يُكافأ بها الإنسان أو

الحيوان. التعزيز السلبي هو عبارة عن تعزيز غير سار وهو يعزز السلوك لأنه يوقفه أو يزيل التجربة غير السارة، وهو بمثابة العقاب punishment؛ فهو مضاد للتعزيز وهدفه إضعاف أو القضاء على الاستجابة أكثر من دعمها فهو حدث كرهه يردع السلوك ويُجَنَّب تكراره. مثل التعزيز السلبي، يمكن للعقاب أيضا أن يعمل مباشرة مطبقا حوافز غير سارة كالصدمة بعد الاستجابة أو بواسطة إزالة الحافز المجزى عليه⁸ لقد أوضح سكينر كيف يعمل التعزيز السلبي و ذلك بوضع جُرْد في صندوق سكينر ثم إخضاعه لتيار كهربائي طفيف مما أدى إلى تسبب بعض الإزعاج للجرذ وكلما تحرك الجرذ حول الصندوق ونقر على المقبض يتوقف التيار، تعلم الجرذ بسرعة الذهاب إلى المقبض مباشرة خلال وقت قصير من التواجد في الصندوق، وكانت النتيجة الهروب من التيار الكهربائي فأدى به ذلك إلى تكرار السلوك مرة بعد مرة .

يرى سكينر أن مبادئ الإشراف الاستثنائي يمكن استخدامها لإنتاج سلوك معقد جدا لو تم تسليم المكافأة والعقاب بطريقة تشجيعية ، و ذلك لجعل الكائن الحي يقوم بأداء السلوك المطلوب منه ، ويرى أنه يمكن تفسير اللغة الإنسانية انطلاقا من مبادئ الإشراف الاستثنائي أيضا وذلك من خلال التعلم بالعادة و التكرار و التقليد Imitation لتصبح سلوكا آليا .

ومن هنا يمكن القول أن الكلام أو جزءا منه يكون كمثير للطفل ليستجيب. و عندما تكون الاستجابة ملائمة أو صحيحة تُعزز من طرف السامع أو الإنسان من خلال المدح و المكافأة و القبول و كنتيجة لذلك يزداد هذا السلوك. بينما إذا قام الطفل باستجابة خاطئة أو غير مناسبة فإن الأهل لا يشجعونه على ذلك (و هذا هو التعزيز السلبي).⁹

ومن ثم فاحتمال حدوث السلوك ينخفض و كنتيجة لذلك لن يُكرر الطفل من اللغة الكلمات التي تلقى تعريزا سلبيا بسببها، ولن يُقلدها بعد الآن في نفس الموضوع، أي أنّ الأطفال يقلدون قِطعا من اللغة التي يسمعونها فإذا تلقوا تعريزا إيجابيا فإنهم سيواصلون تقليد وممارسة تلك القطع التي تتحول فيما بعد إلى عادة أو سلوك آلي، بينما إذا تلقوا تعريزا سلبيا فإنهم ينقصون من تقليد تلك القطع ومن ثم يتوقفون نهائيا.¹⁰

إن أهم ما يوجه كتشكيك في جدوى نظرية الإشراف الاستثنائي في اكتساب اللغة هو عنصر التقليد و المحاكاة الآلية، وهذه نماذج من لغة الأطفال تخالف مزاعم نظرية المحاكاة و العادة في اكتساب اللغة:

Child : My teacher **holded** the baby rabbits and we patted them .

Adult : Did you say your teacher **held** the baby rabbits ?

Child : yes

Adult : What did you say she did ?

Child : She **holded** the baby rabbits and we patted them

Adult : Did you say she **held** them tightly ?

Child : No, she **holded** them loosely ¹¹ (*)

الطفل: أستاذتنا **إمسكت** الأرانب الصغيرة و نحن قمنا بالربت عليها.

الراشد: هل قلت أن أستاذتكم أمسكت الأرانب الصغيرة؟

الطفل: نعم

الراشد: ماذا قلت أنها فعلت؟

الطفل: لقد **إمسكت** الأرانب الصغيرة و نحن قمنا بالربت عليها.

الراشد: هل قلت أنها أمسكت الأرانب بقوة؟

الطفل: كلا. لقد **إمسكتهم** بلطف

نلاحظ من خلال هذا الحوار أن الراشد قد صحح نطق الفعل (hold) -
hold أمسك) بشكله الصحيح في الماضي وهو (held) لكن الطفل استمر في
نطق الفعل كما يحلو له بالخطأ، و هذا ما يُوضّح أن التقليد (تقليد الكبار) لا
يقدم شيئاً أمام إصرار الأطفال على الطريقة التي ينطقون بها لغتهم ، و هذا مثال
آخر:

الطفل: Nobody don't like me

لا أحد لا يحبني

الأم: « nobody likes me » No say :

لا، قل: " لا أحد يحبني "

الطفل: Nobody don't like me

لا أحد لا يحبني

(وبعد ثماني مرات من إعادة هذا الحوار)

الأم: « nobody likes me » No, now listen carefully ; say :

" لا، استمع إليّ جيداً، قل: لا أحد يحبني "

الطفل: Oh ! Nobody don't likes me

أواه! لا أحد لا يحبني¹²

وفي هذا المثال أيضا نلاحظ أنّ كل ما فعله الطفل بعد محاولات الأم المستمرة لتصويب كلامه أن أضاف اللاحقة (S) الدالة على أنّ الفعل متصرف في الزمن المضارع البسيط present simple، ولكنه فعل ذلك على مضض.

وهناك العديد من الأمثلة التي تؤكد ضعف تأثير المحاكاة الآلية على اكتساب اللغة عند الإنسان.

وقد وُجّهت عدة انتقادات لمنهج سكينر في اكتساب اللغة وهذه الانتقادات تطال مفهوم " التعزيز " أو " التدعيم " reinforcement و الذي لا يجدي دائما في المرحلة المتقدمة لاكتساب اللغة أهمها:

>> 1- الكلام ليس دائما لطلب حاجات الطفل من ماء أو طعام ، فكيف يتم اكتساب الملفوظات التي لا تتلقى تدعيما؟

2- هناك كلمات عديدة وجمل تشير إلى حالات خاصة في الذهن أكثر منها إلى أشياء أو أحداث في العالم الخارجي. فكيف يتم تدعيمها اجتماعيا عندما يكون الحكم بصوابها صعبا على الراشدين الذين لا يعرفون ما يدور في عقول الأطفال؟ <<¹³

و ثمة حالات تؤكد أنّ الطفل لا يصحح أبدا أخطاءه اللغوية، بل إنه يحافظ عليها حتى يشب ويكبر ، و ينقلها لذريته أيضا، يقول مارتنيه : >> و يمكننا أن نسمع ، لدى أفراد آخرين معزولين ، (J' es grand) بدل (Je suis grand) (أنا كبير) ، و (ils sontaient) بدل (ils étaient) (هم كانوا) . و هذه " الأخطاء " هي أحيانا تلك التي لا يصححها بعض البالغين أبدا: و قد عرفت باريس بضعة أجيال من الأولاد الذين لم يتعلموا فن التمييز بين brun و brin ، و نقلوا لذريتهم الخاصة شكلا من الفرنسية لا تميز فيه in و un . و يتابع كثير من الفرنسيين ، من كل الأعمار، تصريف فعل aller (ذهب) Je vas ، Tu vas ، Il va كما كانوا يفعلون في سنهم الخامسة .<<

14

لم تنجح النظرية السلوكية في تفسير الجوانب الخلاقة و الإبداعية في اللغة إلا أنها >> تساعدنا على فهم كيفية التدريس و التلقين، فالمحفزات - الاستجابة - التعزيز- يمكن أن تساعد في التعمق و التخصص في الأنماط القواعدية و الصوتية. استخدام هذه المعرفة في الوقت المناسب في عميلة التدريس يعتمد على مهارة الأستاذ و قدرته على التمييز بين المواقف إذ يمكن

استخدم الحافز- الاستجابة- فيها لفائدة التعلم، و من وجهة النظر هذه فإن المعرفة اللغوية تظهر كنتيجة لتفاعلات القدرات المعرفية الإدراكية و الفطرية مع القوى الاجتماعية و الظروف البيئية التي تؤثر على نمو الأطفال << 15

ثانيا- النظرية المعرفية Cognitive Theory (عند جان بياجيه Jean Piaget)

جان بياجيه هو عالم نفس سويسري اشتهر بنظريته المعرفية التي تهتم بالنمو المعرفي لدى الأطفال. يعد بياجيه من رواد الاتجاه البنوي في تفسير اللغة ، >> ويندرج التفسير البنائي لطبيعة اللغة في إطار نظرية إبستيمولوجية عامة تُعرف بالإستيمولوجيا التكوينية (Epistémologie (génétique) ... وضع أسسها... جان بياجيه (Jean Piaget) ، فاللغة من منظور البنائية نشاط مثل باقي الأنشطة الإدراكية و الفكرية و الحركية عند الإنسان، وهو نشاط يتم بناؤه مثل باقي الأنشطة المعرفية عند الطفل عبر مراحل متتابعة. ومن هنا جاءت تسمية هذه المدرسة بالبنائية (Constructivisme) و بالتالي ، فإن البنائية تهتم بالعمليات الإرادية (Cognition) بمفهومها الشامل. << 16

اشتهر بياجيه بنظريته المعرفية التي تقوم على أربع مراحل للنمو المعرفي و التي تتضمن النمو اللغوي أيضا The development of language.

يرى بياجيه أن الأطفال لا يفكرون كالبالغين ومن ثمّ يمكنهم أن يبدؤوا اكتساب اللغة من خلال بناء فهمهم الخاص للعالم عبر التفاعل مع بيئتهم. على الطفل أن يستوعب " المفهوم a concept " قبل أن يكتسب كلمة معينة تعبر عن ذلك المفهوم. فالطفل مثلا يبدأ بمعرفة مفهوم معين مثل " إدراك حجم معين" ثم بعد ذلك يكتسب الكلمات و الأنماط لوصف أو نقل أو التعبير عن ذلك المفهوم .

ذلك أنه من المستحيل للطفل الصغير لفظ كلمات تعبر عن مفاهيم غير معروفة لديه ، لأجل ذلك فعندما يتعلم الطفل أمورا من محيطه فهو يصبح قادرا على تفصيل لغته على مقياس تجاربه السابقة (his perior exprience)، فتجربة الطفل مع القط مثلا هي أنه كائن يموء لديه فرو و يأكل من طبق موضوع في المطبخ، و بالتالي فهو يُطوّر مفهوما على ذلك الكائن. 17

فاعمل النضج العصبي يلعب دورا مهماً في عملية بناء المعرفة لدى الطفل، >> فلقد تبين أهمية نضج الخلايا العصبية في نواح عديدة. لكننا لازلنا نجهل تفاصيل هذا النضج من النواحي البيولوجية كما أننا لا نعرف شروط نضجها لكننا نلاحظ، في بعض القطاعات فقط ، إن النضج يفتح إمكانيات تبدو كشرط ضروري لظهور بعض أنواع السلوك ، لكنها ليست شرطاً كافياً لذلك، ذلك لأنها تزداد بالتدريب و الممارسة . فإذا كان الدماغ يحتوي على أفكار مترابطة موروثه فإنه يحتوي حتما عددا أكبر من الأفكار المكتسبة بالتدريب. << 18

>> إن اللغة من منظور البنائية نشاط ذو صبغة إدراكية، يتم استخلاصه من مجرى تمثيلات لها عدد من الثوابت التي تشكل أساس بنية الذكاء ذاتها (*). و تتميز هذه الثوابت بخاصيتين أساسيتين:

- الفردانية، أي أن كل فرد يبني عالمه الخاص من خلال نشاط خاص به في تلاؤم مع العالم الخارجي.
 - الكلية، باعتبار كل الأفراد العاديين يقومون ببناء هذه الثوابت ، إلا أن هذه الكلية ليست مرادفة للفطرية كما يقول تشومسكي. << 19
- تعد اللغة الإنسانية واحدة من النشاطات المعرفية و الذهنية لعقل الإنسان . و يرى العديد من العلماء المعرفيين أن اللغة تنشأ (emerges) ضمن أو مقرونة بقدرات ذهنية عامة أخرى مثل الذاكرة ، الانتباه و تنص نظرية بياجى المعرفية على أنّ لغة الأطفال تعكس نمو التفكير المنطقي لدى الأطفال و تنمية مهاراتهم عبر عدة مراحل، وكل مرحلة لديها اسم و عمر محددان . ثمة أربع مراحل لنظرية التطور المعرفي وكل مرحلة تتناول جانبا مختلفا عن اكتساب اللغة .

- المرحلة الحركية الحسية **Sensory – Motor Period** : و تبدأ من الولادة حتى العام الثاني، يرى بياجى أن الطفل يولد مع مخططات العمل (action schemas) لاستيعاب (assimilate) معلومات حول العالم . يتميز الطفل في هذه المرحلة بذكاء يسميه بياجى بالذكاء الحركي – الحسي ، وهذا الذكاء يصفه بأنه دون تفكير أو تمثيل ، دون كلام و لا مفاهيم...ينقصه حتما الوظيفة الرمزية التي تتيح له تمثيل ذلك بصور ذهنية أو التعبير بصورة كلامية . من هنا نتناول الذكاء المحدد بوجود الشيء و المواقف و الأشخاص . و الوسيلة إلى ذلك هو الإدراك الحسي فقط . إلا أنّ

هذا الذكاء السريع النمو في هذا المستوى ، خلافا لأي مرحلة أخرى ، يهيئ البنى المعرفية الأساسية للذكاء اللاحق ، من هنا تبدو أهميته القصوى في مجال النمو التكويني للفرد.²⁰

>> إن الذكاء الحسي – الحركي هو عملي بشكل أساسي . فهو يتجه نحو النجاح أكثر منه نحو الحقيقة . فالوصول إلى حلّ المسائل (حسب تجارب بياجيه ، الوصول إلى الأشياء البعيدة أو المخبأة مثلا) يتحقق بفضل بناء نظام من الصور الذهنية المعقدة و تنظيم الواقع حسب مجموعة بنيات ذهنية – فراغية مرتبطة بالأسباب - وهكذا ندلي بنوع من المميزات التي تطلق على الحالة الشبه منتهية أو حالة التوازن... هناك مجموعة استيعابات أو عناصر ارتباط تتكون بين مظاهرها عند الولادة و مظاهرها في عمر 18 شهرا و ذلك بتكوين بنية شاملة علينا أن نتبع مراحلها المتتابعة كي نستطيع تصورنا بأصح رؤية ممكنة . فالذكاء الحسي – الحركي هو إذن نوع من التعبير الذي يكشف عن سياق التكوين و عن حالة التوازن في النهاية.<<²¹

خلال الفترة الحسية و الحركية تتميز لغة الأطفال بالأنانية egocentric و غالبا ما يتحدث الأطفال في هذه المرحلة إلى أنفسهم أو فقط لمجرد متعة أو ربما لشد انتباه أي شخص كان بجانبهم.

- **مرحلة ما قبل الاستخدام Pre- operational period** : وتبدأ من السنة الثانية إلى السنة السابعة ، وهنا تبدأ لغة الأطفال في التقدم بسرعة، ويسمح لهم نمو مخططاتهم العقلية mental schema لاستيعاب بسرعة فائقة كلمات ومواقف جديدة لتصبح لغة الأطفال رمزية (symbolic) تتيح لهم الحديث أبعد من " هنا و الآن " و بالتعبير عن أشياء وقعت في الماضي و أخرى ستقع في المستقبل و كذلك التعبير عن المشاعر.

- **مرحلة " الأنانية و الروحانية " Egocentrism and animism** في هذه المرحلة يميل الأطفال إلى النظر و الاهتمام بكل شيء بما في ذلك الجمادات فيعتقدون أنها حية ، وهنا تعتبر لغتهم أنانية لأنهم لا يرون الأشياء إلا من خلال منظارهم الخاص.

- **مرحلة التشغيل**: وتبدأ من سن 7 – 11 ومن 11 إلى غاية سن البلوغ (adulthood).

قسم بياجي هذه المرحلة إلى قسمين :

فترة العمليات الملموسة وفترة العمليات الشكلية، و لغة الأطفال في هذه الفترة تنشي بنمو تفكيرهم من عدم النضوج إلى النضوج ، ومن عدم

المنطقية إلى المنطقية وتصبح اللغة أكثر اجتماعية وتحتوي على أسئلة و إجابات، وأمر و انتقادات.²²

يرى بياجي أن العديد من البالغين يتحدثون إلى أنفسهم عبر خطابات داخلية نفسية Monologue، و منهم من يجعل هذه المناجاة الداخلية مسموعة وكأنهم بذلك يقومون باستدعاء سامعين وهميين، كما يفعل الأطفال في استدعاء رفقاء اللعب Playfelows، و في هذه المناجاة الفردية فهم يهيئون أنفسهم للانخراط في المحادثات الاجتماعية و الطفل شبيه بالبالغين في هذا المقام، فهو في تكراره لمناجاته الفردية يقوم بنوع من السلوك الذي سيمهد له بالتكيف مع الآخرين. في هذه الحالة هو يتحدث إلى نفسه للتدريب ومن ثم يكيف نفسه للانخراط في أحاديث أكثر اجتماعية.²³

لقد أجريت العديد من الدراسات التطبيقية لدراسة مراحل النمو المعرفي عند الطفل التي قدمها بياجي وعلاقتها بالنمو اللغوي وانتهت هذه الدراسات إلى وجود صلة بين عمر الطفل و لغته، و يمكن للمرء أن يلج إلى موقع " Youtube"، على سبيل المثال، ليدون عنوان " Cognitive Theory of Piaget" لتظهر له الكثير من الجلسات التجريبية السمعية البصرية على الأطفال، وهذه نماذج من هذه الجلسات التي أوردتها بياجي في كتابه (The language And Thought Of The Child) :

قامت السيدة " لوزنجر شيلر Mme Lenzinger schuler " بملاحظة لغة ابنها (هانس) و ذلك في منتصف ونهاية سنة الرابعة . وقد دونت العديد من الملاحظات حول لغة ابنها، مميزة بعناية فائقة بين الكلام الذي يلفظه في حضور البالغين و الكلام الذي يلفظه في حضور أصدقائه الصغار وكانت النتيجة الرائعة التي تم التوصل إليها عبر مراقبة السيدة لوزنجر لابنها هي أن (هانس) استعمل لغة أكثر اجتماعية في حضور أقرانه من الأطفال (Socialized Language) مقارنة بنسبة استعماله لها في حضور البالغين، وخاصة في حضور أمه.

وهذه النتائج جديرة بالدراسة، فهذا الطفل أظهر تمركزا أنانيا أكثر مع الكبار و البالغين Ego- centrism مقارنة به مع الأطفال أقرانه في نفس سنه أو في سن قريبة . لكن هذا التمركز الأناني Ego- centerism بدأ يتراجع وينخفض مع نهاية سنته الرابعة و ذلك من 71 % إلى غاية 43 % .²⁴

هذا نموذج من حديثه مع نفسه Monologues في حضور البالغين:

At 3, 1 (while building) : (124) ‘m making a house for the Chinese, ‘m making a house , a very big house. I’ ve made a house for the Chinese . (125) Up high, the bedrooms. On the top I put the roof ,the ceiling. There that’s right, the ceiling. (126) Now the beds, I put the beds, a bed like that for a Chinese ...

في سنته الثالثة و شهر واحد (عندما كان يبني):

(124) أنا أصنع بيتا للصيني، أنا أصنع بيتا، بيتا جد كبير، لقد صنعت بيتا لأجل الصيني. (125) هناك عاليا، غرف نوم، في الأعلى وضعت السقف، السقف هناك، هذا صحيح، السقف (126) الآن الأسيرة . أنا أضع الأسيرة. سرير كهذا للصيني...

وهذا نموذج آخر:

(While drawing at 3, 1) (318) « want another paper. (319) I must finish the steeple . Here are the bells that go with the string . (320) I put it there (the paper). (321) you’ve still got to make something else (he speaks to himself) , make a chest. I make ... there... the legs. (322) It’s only a table . (323) There, Im drawing on this sheet. (324) I'm making a funny man. (325) what am I doing ? (speaks to himself) It's a waterworks. Here I must draw the water. Now the water. (326) I’ll make a boat too . A little boat and an Indian , a man and a woman, two men and a woman. Tow men and an Indian . (327) They’ve fallen in the water you see (to himself) . (328) There’s a waterworks. Here’s the boat, the Indian and a man and a woman. Must put them inside. (329) Now ‘m making an animal) »²⁵

(وهو يرسم) في عمر الثالثة و شهر واحد:

(318) أريد ورقة أخرى، يجب عليّ أن أنهى برج الكنيسة. هناك توجد الأجراس المعلقة بالحبل (319) أضعها هناك (الورقة). (321) عليك

أيضا أن تفعل شيئا آخر (322) (يتحدث إلى نفسه) اصنع صدرا.. أنا أصنع.. هناك.. السياقان.

إنها فقط مائدة. (323)، هناك، أنا أرسم على هذه الورقة (324) أنا أصنع رجلا مضحكا (325). ما الذي أفعله؟ (يتحدث إلى نفسه) إنها محطة مياه، هنا يجب أن أرسم الماء. الآن الماء. (326) سوف أصنع قاربا أيضا، قاربا صغيرا مع رجل هندي، رجل و امرأة، رجلا و امرأة. رجلا و رجل هندي. (327) إنهم قد وقعوا في الماء، هل ترى؟؟ (يتحدث إلى نفسه). (328) هناك محطة مياه. هذا هو القارب. الهنديان و الرجل و المرأة يجب أن أضعهم داخل القارب. (329) الآن أنا أصنع حيوانا. "

نلاحظ في المثال الأول أن عدد المرات التي ورد فيها ضمير المتكلم (I) أو (I'm) كانت بمعدل خمس مرات ضمن سبع جمل، أما في المثال الثاني فنرى أنه تكرر تسع مرات، وقد قام مرتين بمخاطبة نفسه بضمير المخاطب أنت (YOU) و ذلك في الجمل:

- You 've still got to make something

- You see.

وهذا يُظهر مقدار تجمع الأنا المركزية عند الأطفال في هذه السن ، في المقابل فإن هذه الأنا تتراجع بنضجهم الذهني، وتكاد تنعدم عندما يكونون مع أطفال في مثل سنهم فيصبح كلامهم أكثر اجتماعية .

لقد أظهرت تجربة (هانس) نتائج مذهلة حول كمية المعارف و المعلومات التي يتناقلها الأطفال فيما بينهم، لاحظ النتائج التالية²⁶:

| | | | |
|-------------------------------------|----------|----------|------------|
| - Age | 3,1 | 3, 6 | 4- 4,1 (*) |
| - Dialogue with the adult | 16% | 17% | 19 % |
| - (Information given to the adult) | (10%) | (10.3%) | (14.7%) |
| - Age | 3,1 | 3,8 | 3 , 11- 4 |
| - Dialogue with children | 23.2% | 32.8% | 35% |
| - (Information given to childern) | (13.8%) | (22.7%) | (26.4%) |

وهي تقريبا نفس النتائج التي تم التوصل إليها من خلال مرافقة عدة أطفال لمدة شهر خلال دروس تعليمية كانوا يتلقونها في " Maison Des Petits De L'Institut Rousseau"²⁷

يعد بياجيه من رواد البنائية النفسية Psychological Constructivism، و التعلم في نظره يحدث بفضل الاستيعاب و التكيف. حيث يقوم الاستيعاب - حسب بياجيه- بتعديل تجارب جديدة لتتناسب مع المفاهيم السابقة، أي المفاهيم التي تعلمها الطفل سابقا، كمفهوم القطة الذي شرحناه سابقا ، أما التكيف فيقوم بتعديل المفاهيم لتتناسب مع تجارب جديدة.

وباعتماد هذين المفهومين فإن عملية التعلم عند الطفل لا تحدث على المدى القصير فقط، بل أيضا على المدى الطويل. و لذا التعلم على المدى الطويل هو الهدف الأساسي الذي تركز عليه نظرية النمو المعرفي لدى بياجيه.

بعد مراقبة الأطفال عن كثب، لاحظ بياجيه أن نمو الإدراك خلال مراحل متميزة تبدأ منذ الولادة إلى غاية نهاية مرحلة المراهقة²⁸ عبر أربع محطات سبق الحديث عنها، و هذه المراحل تحكمها عدة خصائص:

- 1- كلها تحدث بنفس الترتيب
 - 2- لا يمكن حذف أي مرحلة
 - 3- كل مرحلة هي تحول كبير للمرحلة التي سبقت
 - 4- كل مرحلة لاحقة هي دمج المراحل السابقة.²⁹
- تعد نظرية بياجيه من أعظم النظريات المعرفية التي سعت لتفسير النمو المعرفي لدى الأطفال، ولكنها لم تسلم من الانتقاد ، ولعل أهم انتقاد وُجّه إليها هو تقليدها من قدرات الأطفال الذهنية في مرحلة ما قبل الدراسة.³⁰
- من خلال ما سبق نستنتج أن نظرية بياجيه المعرفية تخالف نظرية سكينير السلوكية في تفسير عملية اكتساب اللغة، وهذا الاختلاف راجع إلى مبادئ النظريتين ، فبياجيه لا يُسلم بالتقليد الآلي كتفسير لاكتساب المعرفة و ترسيخها في الذهن. و يرى أن عقل الطفل يشتمل على مهارات عقلية تتطور و تنمو بنمو ما يسميه بـ " مخططات التشغيل" Action schemas فكلمة تقدمت هذه المخططات تقدمت لغة الطفل وصار بوسعه الحديث و التعبير عن أمور أعمق و أكثر تعقيدا كالأفكار و المشاعر المختلفة.

الهوامش:

- 1- جمعة سيد يوسف ، سيكولوجيا اللغة و المرض العقلي ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، دار المعارف ، 1990 ، الكويت ، ص 98
- 2- المرجع نفسه ، ص 99

3- Bollans Nicholas . Comsky Vs. Skinner on Language ,
Date : April 11, 1996. Users. From : ecs.soton. ac.
uk /harnad/Hyermail/Thinking.psychologically96 /0097.htm

4-Mohammed Toukul Islam , First Language Acquisition Theories and Transition to SLa, Japan University , Sudia Arbia, The Asian Conference on Language Learning , 2013, Osaka, Japan , p. 500

5- Ibid, p. 500

6-Mc leed, S .A . (2015). Skinner- Operant Conditioning.Retrieved, from : www.
simplypsychology.org/operant-conditioning .htm.

7-Ibid

8-Ibid

9-Ibid.

10-Ibid.

11- ينظر : سوزن جاس ، لاري سلينكر، اكتساب اللغة الثانية ، تر: ماجد الحمد ، النشر العلمي و المطابع ، ج1 ، 1430 هـ، الرياض ، ص 159
(*) Loosely: ، هي ظرف adverb في الإنجليزية، و تعني القيام بشيء ما بطلاقة و بحرية ، لكن الطفل يقصد بها هنا بلطف ، وهو ظرف يستعمل غالبا للتعبير عن دمج شيئين .

12- ينظر : سوزن جاس، لاري سلينكر ، اكتساب اللغة الثانية ، ص 159

13- جمعة سيد يوسف ، سيكولوجيا اللغة و المرض العقلي ، ص 101

14- أندريه مارتنيه ، وظيفة الألسن و ديناميتها ، تر: نادر سراج، المنظمة العربية للترجمة (مركز دراسات الوحدة العربية)، ط1، 2009، بيروت. ص 182

15- Mohammed Toufik Islam, First Language Acquisition Rheries and Transition to Sla, p. 502

16- سعيد الفراع ، الطفل و اكتساب اللغة بين البنائية و التوليدية ، رؤى تربوية ، فصلية ثقافية تربوية (مركز القطان للبحث و التطوير التربوي) ، العدد الرابع و الأربعون و الخامس و الأربعون ، آذار 2014 (عدد مزدوج) ، رام الله (فلسطين) ، ص 164

17-en.wikiversity.org/wiki /Psycholinguistics/Theories-and-Models-of-Language-Acquisition.

18 - موريس شربل، التطور المعرفي عند جان بياجيه، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر ، ط1، 1986 ، بيروت، ص 104

(*) لقد صرّح تشومسكي أنّ اكتساب اللغة لا صلة له بالذكاء، لأن اللغة هبة فطرية خاصة بالجنس البشري و هي متاحة للجميع على اختلاف معدلات ذكائهم ، غير أنه ثمة بحوث عربية ترى أنّ اللغة تساهم في رفع معدل هذا الذكاء لدى الأطفال من الشهر الثامن إلى غاية السن الثانية عشرة، حيث شاهدتُ برنامجاً تلفزيونياً للباحثة اللغوية المصرية الأكاديمية " سهير السكري" التي تُدرّس اللسانيات في كبريات جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، كجامعة نيويورك و جامعة " جورج تاون" أعلنت فيه أنّ الأجيال العربية القديمة حتى إلى عهد الدولة العثمانية أكثر ذكاء و قدرة على استيعاب العالم من الأجيال العربية في القرن الواحد و العشرين، لأن الأجيال الأولى كانت تحفظ القرآن الكريم في الكتاب و الزوايا في سنّ مبكرة حوالي من السن الثالثة إلى غاية السن السادسة ممّا يسمح لها باستيعاب أكثر من خمسين ألف كلمة، مع العلم أنّ عدد كلمات القرآن الكريم هي سبعة و سبعون ألف و أربعمئة و تسع و ثلاثون كلمة. بعدها يحفظ ألفية بن مالك التي تحتوي كل قواعد اللغة العربية في السن السابعة ، بينما الأسر العربية المعاصرة فهي تُربي أطفالها على اللغة العامية و اللغة العامية لا تزيد على ثلاثة آلاف كلمة بمعنى قتل للإبداع و للخيال أيضاً. يمكن الاطلاع على البرنامج من خلال هذا الرابط:

(<https://www.youtube.com/watch?v=LdHEc679s-k>)

- 19- سعيد الفراع ، الطفل و اكتساب اللغة بين البنائية و التوليدية ، ص 164 - 165
- 20- ينظر : موريس شربل ، التطور المعرفي عند بياجيه ص 109.
- 21 - المرجع نفسه ، ص 109- 110.
- 22- للتعرف على خصائص هذه المراحل بدقة ، ينظر :

Kelvin Seifert and Rosemary Sutton, Educational Psychology, Second Edition, The Global Text. Zurich. Switzerland. Pp . 47 - 50

- 23- Jean Piaget , The Language and Thought of The Child, Translated by : Marjorie and Ruth Gabian, Volume 5, Third Edition , London and New york, 1959, p. 1

24- Ibid,P p. 142 – 144

25- Ibid, p .144

26- Ibid, p . 145

(*) تشير الأرقام وراء الفاصلة إلى الشهر.

- 27- ينظر : التجارب التي أجراها بياجيه مع فريقه على طفلين « Pie » « Lev » من عمر الرابعة إلى السابعة ، Jean Piage, The Language and Thought of The Child, p. 3 - 45

28- Kelvin Seifert and Rosemary Sutton, Educational Psychology, p. 47

29- IBID .p , 47

- 30- ينظر : موسى رشيد حتملة ، نظريات اكتساب اللغة الثانية و تطبيقاتها التربوية، القسم الثاني ، من :

www.majma.org.jo/index.php

قائمة المصادر و المراجع:

1- أندريه مارتنيه ، وظيفة الألسن و ديناميتها ، تر: نادر سراج، المنظمة العربية للترجمة (مركز دراسات الوحدة العربية)، ط1، 2009، بيروت. ص 182

2- جمعة سيد يوسف ، سيكولوجيا اللغة و المرض العقلي ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، دار المعارف ، 1990 ، الكويت.

3- سعيد الفراع ، الطفل و اكتساب اللغة بين البنائية و التوليدية ، رؤى تربوية ، فصلية ثقافية تربوية (مركز القطان للبحث و التطوير التربوي) ، العدد الرابع و الأربعون و الخامس و الأربعون ، آذار 2014 (عدد مزدوج) ، رام الله (فلسطين) .

4- سوزن جاس ، لاري سلينكر، اكتساب اللغة الثانية ، تر: ماجد الحمد ، النشر العلمي و المطابع ، ج1 ، 1430 هـ، الرياض .

5- موريس شربل، التطور المعرفي عند جان بياجيه، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر ، ط1، 1986 ، بيروت.

6- Jean Piaget , The Language and Thought of The Child, Translated by : Marjorie and Ruth Gabian, Volume 5, Third Edition , London and New york, 1959.

7- Kelvin Seifert and Rosemary Sutton, Educational Psychology, Second Edition, The Global Text. Zurich. Switzerland. Pp . 47 - 50

8-Mohammed Toukul Islam , First Language Acquisition Theories and Transition to SLa, Japan University , Sudia Arbia, The Asian Conference on Language Learning , 2013, Osaka, Japan .

9- Bollans Nicholas . Comsky Vs. Skinner on Language , Date : April 11, 1996. Users. From : ecs.soton. ac uk /harnad/Hyermail/Thinking.psychologically96 /0097.htm.

10-Mc leed, S .A . (2015). Skinner- Operant
Conditioning.Retrieved, from : www.
simplypsychology.org/operant-conditioning .htm.
11-en.wikiversity.org/wiki /Psycholinguistics/Theories-and-
Models-of-Language-Acquisition.

12- موسى رشيد حتاملة ، نظريات اكتساب اللغة الثانية و تطبيقاتها التربوية،
القسم الثاني ، من : [www. majma.org.jo/index.](http://www.majma.org.jo/index)